

تبادل الهدايا في المناسبات الدينية - الحج نموذجاً -

الدكتورة : لغرس سوهيلة¹ .

مدخل :

عندما نتحدث عن مفهوم التبادل يفقدنا الأمر للحديث عن الباحث ببيير بورديو الذي استعمل هذا المفهوم في دراساته الميدانية التي أجراها بالمجتمع القبائلي بالجزائر، بالإضافة إلى استعماله لمفاهيم أخرى كالرأسمال الرمزي ، الهيمنة الذكورية والسلطة الرمزية.

ولكن في هذا المقال سنركز على مفهوم التبادل الرمزي، وطبقاً للآراء بورديو فإن التبادل يوجد في كل المجتمعات التقليدية والمجتمعات الحديثة وهو أربعة أنواع :

رد العدوان ، الزوجات ، الأرض والهدية وهذا النوع الأخير من التبادل - تبادل الهدايا- الذي نجده بكثرة في المناسبات الدينية عامة والحج خاصة ، باعتباره المناسبة التي يتبادل فيها الأفراد الهدايا بأنواعها المادية (أطباق الحلويات و الألبسة ،...) والمعنوية كعبارات التهاني، وعليه فالإشكال الذي نطرحه هو كالاتي:

ما هي أبعاد ومجالات تبادل الهدايا خلال ممارسة طقس الحج؟ .

وفيما تتمثل أهمية تبادل الهدايا في هذه المناسبة؟ .

وللإجابة على هذه الإشكالية ارتأيت لوضع هذه الفرضيات كإجابة مؤقتة يمكن تأكيدها ويمكن تنفيذها في نهاية البحث وهي كالتالي :

-يشمل نطاق تبادل الهدايا في مناسبة الحج ما يلي : البعد الأسري والبعد الجوارى والقرباية.

-يساهم تبادل الهدايا في تقوية العلاقات الاجتماعية بنوعها الجوارية والقرباية .

أما عن النظرية المعتمدة في هذه الدراسة هي نظرية التبادل الاجتماعي ومن أهم روادها نجد كل من جي ثيبوت و بيتر بلاو وجورج هومنز ومارسيل موس وغيرهم من الباحثين وتتلخص أهم أفكارهم فيما يلي:

"1- الحياة التي نعيشها هي عملية أخذ و عطاء أي تبادل بين شخصين أو مجتمعين .

2-يعتبر العطاء الذي قدمه الفرد للفرد الآخر كواجب في حين يعتبر الأخذ الذي يحصل عليه الفرد من الفرد الآخر هو حق .

3-عند الموازنة بين الأخذ و العطاء تقوى و تتعمق العلاقة و تستمر بين الأفراد .

4-الموازنة بين الواجبات و الحقوق لا تتحدد بالمجالات المادية و فقط بل تتحدد أيضا بالمجالات المعنوية و الروحية و الاعتبارية"² .

¹ كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية قسم علم الاجتماع جامعة معسكر. souhayla1@hotmail.fr

-إحسان محمد الحسن. النظريات الاجتماعية المتقدمة. عمان . دار وائل . الطبعة الأولى.2005. ص: 186-187. ²

وفيما يخص التقنية المستعملة في هذه الدراسة هي تقنية الملاحظة - الملاحظة المباشرة - .

1-تحديد المفاهيم:

تتلخص مفاهيم الدراسة فيما يلي:

أ-التبادل الرمزي:

-التبادل الرمزي " هو حقيقة اجتماعية صرفة، يعد عنصرا جوهريا في فهم عمليات المشاركة و التبادل ، كما أنه يفترض وجود وحدة عميقة بين الأشياء والقوى والكائنات المنظورة وغير المنظورة أو الظاهرة و الباطنة وهو يستخدم هنا كوسيط ثقافي يشمل الجوانب الشخصية ، الاجتماعية ، الكونية ، متعديا مجرد تبادل الهبات أو الهدايا ليشمل المشاركة في الرموز المادية و الغير المادية ، مثل الكلمات والصلوات والأغاني والرقصات" ¹ .

"يعد التبادل الرمزي بمثابة حدث عام و خاص يؤسس الروابط الاجتماعية ، ويبسر التواصل بين الأفراد ، و يعمق التضامن و الاتحاد" ² .

فالتبادل يكون حدثا عاما لأنه يكون يخص أفراد المجتمع ككل ، ويكون حدثا خاصا لأنه يوجد في مجتمع دون آخر و يوجد في ثقافة دون أخرى ، وبهذا فالتبادل يساهم في تقوية و تثبيت العلاقات بين أفراد المجتمع وفي هذا السياق نجد بيار بورديو يقول " إحدى وظائف التبادل الرمزي مثل الأعياد و الطقوس هي تأكيد التعزيز أو الدعم الدائري الذي هو أساس المعتقد الجمعي " ³ .

ب-الهدية :

-الهدية هي : "دفع عين سواء كانت مالا أو سلعة إلى شخص معين - الذي يراد بالهدية هذا الشخص المعين - لأجل الألفة و الثواب من غير طلب ولا شرط" ⁴ .

وفي تعريف آخر نجد أن الهدية هي: " تملك في الحياة بغير عوض" ⁵ .

تعبر الهدية عن الحب، الاحترام، التقدير، الشعور بالسعادة و الفرح، الكرم،... وغيرها من الدلالات والمعاني الإنسانية والاجتماعية والنفسية ، وفي هذا السياق نجد الرسول صلى الله عليه وسلم يقول:" تهادوا تحابوا "

ويقول الشاعر :

-هدايا الناس بعضهم لبعض تولد في قلوبهم الوصالا .

-السيد الأسود . الدين و التصور الشعبي للكون - سيناريو الظاهر و الباطن في المجتمع القروي المصري .القاهرة . المجلس الأعلى

¹للثقافة .2005.ص : 179 .

²-السيد الأسود . الدين و التصور الشعبي للكون . نفس المرجع . ص : 179.

³-السيد الأسود . الدين و التصور الشعبي للكون . نفس المرجع .ص : 179.

⁴-محمد المنجد . آداب الهدية .

⁵-المولاني خديجة . الهدية الإطار المرجعي و الممارسة قرية الدية بالبحرين نموذجا .

-وتزرع في الضمير هوى وودا وتكسوه إذا حضروا جمالا .
في حين نجد مارسيل موس يرفض فكرة أن الهدايا مجرد رمز يدل على الكرم ، و أنها هي عبارة
عن ثلاث صفات رئيسية من الالتزامات :
أ-الالتزام بتقديم الهدية .
ب-الالتزام بتسليم الهدية .
ج-الالتزام بإعادة تقديم الهدية "1 .
ويضيف موس إلى أن هذه الهدايا لها طابعها" القانوني : لأنها مرتبطة بالالتزامات والحقوق
الجمعية.

الطابع السياسي : لأنها متصلة بالتنظيم القبلي والعشائري .
الطابع الديني : لأنها محاطة بالسحر و الطقوس .
الطابع الاقتصادي : لأنها تتضمن مفاهيم القيمة والمنفعة والثروة والاستهلاك والتراكم"2
إن عمليات التبادل الرمزي للهدايا "هي عمليات تتسم بخاصية الدورة ، بمعنى أنها تستثير ردود
أفعال لدى الأفراد و بصورة مستمرة "3 .
وهذا ما يعني أن تبادل الهدايا بين الأفراد يكون بشكل دوري يوميا ، أسبوعيا ، شهريا ، فصليا ،
سنويا ، فتبادل الهدايا يكون بهدف الحفاظ على الرأسمال الرمزي و زيادته .
وطبقا لمفهوم الرأسمال الرمزي فإن " مانح الهدية يكون في موقف من يملك القوة الرمزية بمعنى أنه
مثل الدائن ، بينما من يتقبل الهدية فيكون في موقف المدين بمعنى أنه عليه أن يرد الهدية في مناسبة
أخرى "4 .

فتبادل الهدايا الهدف منه هو الحفاظ على الرأسمال الرمزي وزيادته .
ج - الحج :
يعتبر الحج أحد أركان الإسلام الخمسة .
- شرعا : "هو قصد مكة ، لأداء عبادة الطواف . والسعي والوقوف بعرفة ، وسائر المناسك ،
استجابة لأمر الله ، وابتغاء مرضاته "5 .

-حسين عبد الحميد أحمد رشوان . الاقتصاد و المجتمع - دراسة في علم الاجتماع الاقتصادي . الإسكندرية . المكتب الجامعي
الحديث . الطبعة الثانية . 2009 . ص : 208 .¹
-حسين عبد الحميد أحمد رشوان . الاقتصاد و المجتمع . نفس المرجع . ص : 208-209 .²
-السيد حافظ الأسود . الأنثروبولوجيا الرمزية - دراسة نقدية مقارنة للاتجاهات الحديثة في فهم الثقافة و تأويلها . الإسكندرية . منشأة
المعارف . 2002 . ص : 72 .³
-السيد حافظ الأسود . الأنثروبولوجيا الرمزية . نفس المرجع . ص : 71 .⁴
-محمد السيد سابق . فقه السنة . القاهرة . مدينة نصر . الفتح للإعلام العربي . المجلد الأول . 1993 . ص : 442 .⁵

يتضمن الحج مجموعة من الشروط وهي كالاتي :

- 1-الإسلام : يجب على الفرد الذي يريد أن يؤدي شعيرة الحج أن يكون مسلما ، لا كافرا .
- 2-البلوغ : أن يكون الفرد بالغا ، بمعنى لا يجوز الحج للصبي .
- 3-العقل : يجب على الحاج أن يكون عاقلا و ليس مجنونا حتى يكون باستطاعته إدراك كل أفعاله .

- 4-الاستطاعة : " أن يكون المكلف صحيح البدن ، فإن عجز عن الحج لشيخوخته، أو زمانه ، أو مرض لا يرجه شفائه ، لزم أحجاج غيره عنه إن كان له مال " ¹ .
- وبعبارة مختصرة يشترط وجوب الحج على القدرة المالية و القدرة البدنية (الصحة) . يقول تعالى :
- "ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا " ² .

وفيما يخص أركان الحج فنجد ما يلي :

- الإحرام .
 - الوقوف بعرفة .
 - طواف الإفاضة .
 - السعي بين الصفا والمروة .
- اصطلاحا : يعتبر الحج طقس ديني ، يعاد إحياءه سنويا من طرف المسلمين ، وهو يتضمن ممارسات دينية واجتماعية خاصة تعكس الهوية الثقافية للمجتمعات الإسلامية .
- فالحج هو مظهر من مظاهر العبادة يقول الرسول صلى الله عليه وسلم في هذا المعنى :
- "أيها الناس قد فرض الله عليكم الحج فحجوا " .
- ويقول أيضا : " من حج لله فلم يرفث و لم يفسق رجع كيوم ولدته أمه " ³ .
- و كذلك يعتبر الحج مظهر من مظاهر الوحدة والقوة والإخاء بين المسلمين .
- د-العلاقات الاجتماعية:

-نقصد بالعلاقة الاجتماعية بأنها عملية تفاعل واحتكاك بين أفراد المجتمع سواء بطريقة مباشرة أو غير مباشرة ، من خلال العمليات الاجتماعية المتنوعة كالتعاون و التسامح والصراع والتنافس باختصار علاقة يسودها صراع أو تفاهم داخل مجال اجتماعي ما (المجال الأسري ، المجال العائلي ، المجال الجوارى).

2- مجال تبادل الهدايا:

-محمد السيد سابق. فقه السنة . نفس المرجع . ص : 445-446. ¹

-القرآن الكريم . سورة آل عمران . الآية : 97. ²

-الشيخ أبو عبد السلام. فتاوى . جريدة الخبر - إسلامية . يوم الخميس 10 أكتوبر 2013. ص:22. ³

ما يميز المجتمع الجزائري عامة ومجتمع مدينة معسكر خاصة (مجتمع الدراسة) أن الأفراد عند ممارستهم لطقس الحج يقومون بمجموعة من العادات والتقاليد بحيث نجد أن المسافر إلى " بيت الله " يعمل على تقديم و جبة غذائية يدعوا فيها أقاربه وجيرانه وأحبائه قبل سفره يعني القيام بحفلة وداع - توديع أهله و أحبائه له (الحاج) متمنين له سفر جيد و حج مقبول و عودة سليمة .

وفي مقابل هذه الحفلة - حفلة وداع - نجد أيضا -حفلة استقبال ، استقبال الحاج لعودته سالما إلى بيته بحيث يتلقى تهاني (كعبارة حج مقبول) وهدايا متنوعة (كالحلويات والأطعمة المتنوعة ذات الطابع التقليدي والعصري ، المال...) من طرف المهنيين يعني من طرف الأهل والأصدقاء والجيران . إضافة إلى هذا نجد أن المسافر يحصل على لقب ' الحاج ' هذا اللقب الذي يعطيه مكانة خاصة داخل المجتمع الذي يوجد فيه - رأسمال اجتماعي حسب بيار بورديو ، بحيث يحظى بالاحترام و التقدير من طرف المتفاعلين معه - أفراد أسرته ، أهله ، أصدقائه وجيرانه .

وبالمثل نجد الحاج يقدم بدوره إلى مهنتيه هدايا جاء بها من مكان مقدس و مبارك - مكة المكرمة والمدينة المنورة - وتتمثل هذه الهدايا في السبحة ، العباة ، المسك ، سجادة للصلاة ، ماء زمزم و ملابس و غيرها من الهدايا ذات القيمة العالية والمميزة وذات الصبغة المقدسة أيضا - لأنها من مكان مقدس حسب المبحوثين.ومما سبق ذكره، يتضح لنا أن هناك عدة أبعاد تلعب دورا واضحا في تحديد نطاق تبادل الهدايا وهي كالتالي : بعد القرابة ، بعد الحيرة وبعد الصداقة .

3- دور و أهمية تبادل الهدايا في مجتمع الدراسة:

من خلال الدراسة الميدانية اتضح لنا أن تبادل الهدايا في مناسبة الحج لها دور مهم على المستوى الاجتماعي وعلى المستوى الفردي (الجانب النفسي) :

1-المستوى الاجتماعي:

تتعدد وتتنوع وظائف تبادل الهدايا داخل الوسط الاجتماعي ويمكن إجمالها فيما يلي:
-إن تبادل الهدايا بين الأفراد في مثل هذه المناسبات - مناسبة الحج - يؤدي إلى تقوية العلاقة فيما بينهم وبالتالي استمرارها واستقرارها .

-يعتبر تبادل الهدايا بين الأفراد نوع من أنواع التضامن الاجتماعي، بنوعيه المادي والمعنوي.

- يعكس نظام تبادل الهدايا الهوية الثقافية الإسلامية لمجتمع الدراسة (مدينة معسكر) .

2-المستوى الفردي (الجانب النفسي) :

للهدايا أثر قوي على الصحة النفسية للأفراد وهي كالتالي:

-إن عملية تبادل الهدايا بين أفراد المجتمع تؤدي إلى بث الفرحة و السرور في أنفسهم .

-إن تبادل الهدايا بين الأفراد (الأقارب منهم و الجيران و الأصدقاء) هو دلالة على المحبة و

الإخاء فيما بينهم.

-إن تبادل الهدايا يعتبر وسيلة من وسائل تقييم الآخر (القريب ، الجار ، الصديق ، ...) وبالتالي شعور هذا الأخير (الآخر) بالاطمئنان والأمان لأن الآخرين يهتمون لأمره .
-الخاتمة :

إن عملية تبادل الهدايا خلال المناسبات الدينية ونخص بالذكر مناسبة الحج التي تساهم بصورة مباشرة في تقوية وتعزيز العلاقات الاجتماعية بمختلف أنواعها الأسرية منها والقريبة والجوارية ، وفي هذا السياق نجد مارسيل موس عند دراسته لحفلة الكولا وتطرقه لنظام تبادل الهدايا يستنتج أن تبادل الهدايا ليس عملية اقتصادية بل عملية اجتماعية محضة ذلك لأنها تعتبر من الآداب الاجتماعية العامة التي تعمل على البناء الاجتماعي .

و بمعنى آخر إن الاحتفال بالحج يساهم بتقوية العلاقات الاجتماعية بين أفراد المجتمع من جهة ويعكس ثقافتهم (الأفراد) من جهة أخرى.

المراجع :

أ-الكتب :

1-القرآن الكريم .

2-إحسان محمد الحسن . النظريات الاجتماعية المتقدمة . عمان . دار وائل . الطبعة الأولى.2005.

3-السيد الأسود . الدين و التصور الشعبي للكون - سيناريو الظاهر و الباطن في المجتمع القروي المصري . القاهرة . المجلس الأعلى للثقافة . 2005

4-السيد حافظ الأسود . الأنثروبولوجيا الرمزية - دراسة نقدية مقارنة للاتجاهات الحديثة في فهم الثقافة و تأويلها . الإسكندرية . منشأة المعارف . 2002

5-محمد السيد سابق . فقه السنة . القاهرة . مدينة نصر . الفتح للإعلام العربي . المجلد الأول . 1993

6-حسين عبد الحميد أحمد رشوان . الاقتصاد و المجتمع - دراسة في علم الاجتماع الاقتصادي . الإسكندرية . المكتب الجامعي الحديث . الطبعة الثانية . 2009

ب-الجلات :

7-الشيخ أبو عبد السلام . فتاوى . جريدة الخبر - إسلامية .يوم الخميس 10 أكتوبر 2013.

ج-مواقع الأنترنت :

8-محمد المنجد . آداب الهدية . على موقع :

Disponible sur : www.audio.islamweb.net/audio/index
consulter le: 12/02/2014 .